

من قتل المهندس إلى معاقبة الفياض: واشنطن ترفض التسليم بإدماج الميليشيات الشيعية في الدولة العراقية

جسم طائفي دخیل يعتاش على أموال العراقيين تستخدمه إيران في حراسة نفوذها



تسليط الولايات المتحدة عقوبات على فالح الفياض رئيس هيئة الحشد الشعبي العراقي، وقبل ذلك إقدامها على قتل القائد الميداني للحشد أبو مهدي المهندس، رسالتان قويّتان إلى كبار المسؤولين في الدولة العراقية يفيد مضمونها بأن واشنطن ليست في وارد التسليم مثلهم دور الميليشيات الطائفية المتطرفة كأمر واقع واستيعابها ضمن المؤسسات الرسمية للدولة. وفيما يلاقي هذا الموقف الأميركي استحساناً لدى دعاة تحجيم الميليشيات وإعادة الهيئة للقوات النظامية، تغيب الإرادة السياسية اللازمة لاستثمار الخطوات الأميركية.

بغداد - أعاد قرار الولايات المتحدة مؤخراً فرض عقوبات على رئيس هيئة الحشد الشعبي العراقي، تسليط الضوء على الدور السلبي الذي تلعبه العشرات من الميليشيات المشكلة للحشد في منع استقرار البلد والضغط التي تسببها على الدولة والمجتمع والتجاوزات والجرائم الكثيرة التي ترتكبها بحق العراقيين. لكنّه أعاد، في الوقت ذاته، لفت الانتظار إلى عملية إدماج تلك الميليشيات ضمن القوات المسلحة العراقية والتي لم تكن في حقيقتها سوى حيلة هدفت إلى إضفاء شرعية على وجود تشكيلات مسلحة غير نظامية وتمكينها من غطاء قانوني وضمان حصّة منتظمة لها من موارد الدولة، الأمر الذي الحق المزيد من الضرر بتلك القوات التي تعاني أصلاً منذ سنوات تدهوراً شديداً في قدراتها ومستواها التنظيمي والتسليحي، وترجعاً في هيبتها في مقابل صعود الميليشيات التي نازعتها سلطاتها ومجالات اختصاصها.

وضع شأن

نزل إعلان وزارة الخزانة الأميركية عن قرارها فرض عقوبات على قائد الحشد الشعبي العراقي ومستشار الأمن الوطني السابق فالح الفياض، بسبب انتهاكات الحشد لحقوق الإنسان خلال الانتفاضة الشعبية الأخيرة وانخراطه في قمع المحتجين والتكثيف بهم، كالصاعقة على كبار قادة الميليشيات الشيعية المرتبطة بإيران.

ساسة عراقيون لا تربطهم وشائج طائفية أو حزبية بالميليشيات يهدرون فرصة خلخلة واشنطن لاستقرار تلك الميليشيات

كما تسبّب بحرج بالغ لكبار المسؤولين في الدولة نظراً لكونهم سلموا بإدماج الميليشيات في المؤسسات الرسمية، وقبلوا بالتعامل مع الحشد الشعبي كهيئة حكومية، وهو الأمر الذي لم ترض الولايات المتحدة، المصنفة كحليف أساسي للعراق في مجالات السياسة والأمن والاقتصاد، بقبوله كأمم واقع، مجسدة ذلك الرفض، ليس فقط من خلال معاقبة الفياض، ولكن أيضاً بإقدامها قبل نحو سنة على قتل القائد الميداني للحشد أبو مهدي المهندس في غارة جوية قرب مطار بغداد أودت أيضاً بقائد فيلق القدس ضمن الحرس الثوري الإيراني الجنرال قاسم سليماني الذي يعتبر المشرف الحقيقي على الميليشيات الشيعية في العراق، بما في ذلك تلك المنضوية ضمن الحشد الشعبي، الأمر الذي يشكّل وضعاً شاذاً يتمثّل في تحكّم دولة جارة في هيئة تعدّها الدولة العراقية ضمن مؤسساتها الرسمية.

واتهمت واشنطن ضمن أسباب إدراجها الفياض على القائمة السوداء بأنه جزء من خلية أزمة تشكلت في أواخر 2019 لإخماد الاحتجاجات بدعم

من فيلق القدس الإيراني المدرج بدوره على القائمة نفسها.

وقال وزير الخزانة الأميركي ستيفن منوتشين "من خلال إدارة والإشراف على قتل المظاهرين السلميين العراقيين، فإن المتشددين المتحالفين مع إيران مثل فالح الفياض يشنون حملة عنيفة على الديمقراطية العراقية والمجتمع المدني". وأضاف "ستواصل الولايات المتحدة محاسبة منتهكي حقوق الإنسان في العراق الذين يهدفون إلى حرمان العراقيين من الاحتجاج السلمي والسعي إلى العدل واجتثاث الفساد في بلادهم".

وسبق للولايات المتحدة أن وضعت ثلاثة من قادة الميليشيات الشيعية العراقية على لائحة عقوباتها، هم قيس الخزعلي زعيم ميليشيا عصائب أهل الحق المنضوية ضمن الحشد الشعبي وشقيقه ليث القيادي في الميليشيا نفسها، بالإضافة إلى أبو زينب الأميني الذي يشغل منصب المسؤول الأمني الأعلى في هيئة الحشد.

وتعلم الولايات المتحدة يقيناً أنّ الميليشيات الشيعية المشكلة للحشد الشعبي تابعة لإيران وجزء أساسي من أدوات تنفيذ أجندتها في المنطقة وأنّ السماح لها باختراق أجهزة الدولة، وخصوصاً منها الأجهزة الأمنية على أهمية دورها، يعني أن الدولة العراقية تسخر جزءاً من م قدراتها المادية والبشرية أداة لتنفيذ تلك الأجندة، الأمر الذي لا تقبل به واشنطن لدولة تعدّها ضمن حلفائها في المنطقة.

تجاوز المهمة الأصلية

تشكّل الحشد الشعبي بإي الأمر المهمة محدّدة، تتمثّل في قتل تنظيم داعش الذي غزا في 2014 ما يقارب ثلث مساحات العراق في ظلّ حالة من شبه الانهيار وصلت إليها القوات العراقية آنذاك جرّاء السياسات الرسمية التي مورست ضدها وتسبّب الفساد والاعتبارات غير المهنية من محسوبية وطائفية وغيرها إلى صفوفها.

وقد اهتمت تلك المهمة بالفعل سنة 2017 بهزيمة التنظيم واستعادة جميع الأراضي التي سيطر عليها. ومع ذلك لم يتمّ حل الحشد الشعبي وإلغاء دور الميليشيات وحصر حمل السلاح

بشكل أهمية إستراتيجية لطهران ضمن مخطّطها لفتح طريق طويلة سالكة تربط بين الأراضي الإيرانية والبحر المتوسط في لبنان وتمزّج عبر الأراضي العراقية السورية، ولا يمكنها أن تأنس على حراستها وتأمينها سوى قوات الحشد التابعة لها واقعيًا والتابعة للدولة العراقية سورياً.

أما المكسب غير المباشر لإيران من وراء الحفاظ على دور مستدام للحشد الشعبي يتمتّع بغطاء قانوني، فقد تمثّل في إيجاد أداة فعّالة لحراسة النظام القائم في العراق، وحمائته من السقوط، خصوصاً في ظل ما أظهره على مدى قرابة السنوات الثماني عشرة من هشاشة وفساد وفشل في إدارة شؤون الدولة وفي تقديم إنجازات تدعم شرعيته وترفع مستوى شعبيته لدى المواطنين.

وبرزت الحاجة إلى الحشد للعب هذا الدور خلال الانتفاضة الشعبية التي انطلقت في شهر أكتوبر 2019 واستمرّت لعدة أشهر. ولم تقتصر على المطالبة بتحسين ظروف العيش وتوفير الخدمات الأساسية وإيجاد مواطن العمل لآلاف من العاطلين عن العمل ومحاربة الفساد المستشري في مفاصل الدولة، بل تدرّجت نحو رفع شعارات إسقاط النظام. وهو أمر في ما لو تحقّق بالفعل سيتملّ نكبة حقيقية لإيران التي تتخذ من النظام العراقي، الذي

ومن المكاسب المباشرة التي حقّقها قانون إدراج الحشد الشعبي ضمن المؤسسات الرسمية العراقية لإيران، أنّه أتاح للميليشيات الشيعية الحفاظ على تواجدها في المناطق السنّة جنوب العاصمة بغداد (جرف الصخر)، وخصوصاً في شمال العراق وغربه. ومن تلك المناطق ما

تقوده بشكل رئيسي أحزاب شيعية موالية لطهران التي كانت قد احتضنت بعضها في فترة تأسيسها ونشاطها السري ضدّ نظام الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين، نقطة ارتكاز أساسية لمدّ نفوذها في المنطقة.

إهدار فرصة

على غرار مشاركته بفاعلية في الحرب ضدّ تنظيم داعش، انخرط الحشد الشعبي في التصدي للانتفاضة ومحاوله إخمادها من خلال ترهيب المشاركين فيها وقمعهم والتكثيف بهم، وهو الأمر المثبت في قرار وزارة الخزانة الأميركية فرض عقوبات على فالح الفياض.

وتدرك طهران جيّداً خلفيات الاستهداف الأميركي لرموز الحشد الشعبي وقادة الميليشيات الشيعية في العراق، وما يشكّله من تهديد لنفوذها، ولذلك كانت طهران في مقدّمة من أدانوا وشجّبو العقوبات على الفياض من خلال موقف رسمي لخارجيتها عبّر عنه المتحدث باسمها سعيد خليل زادة، وجاء فيه أنّ بلاده "تستنكر الحظر الأميركي ضدّ رئيس هيئة الحشد الشعبي في العراق"، وأنّ "هذا الحظر ليس مداناً فقط بل محكوم بالفشل أيضاً، ومؤشّر على أوضاع أميركا السيئة في منطقة غرب آسيا". وجاء موقف إيران هذا متسقاً مع علاقتها القوية بالميليشيات الشيعية ومصالحها الحيوية في الحفاظ على مكانتها ودورها في المشهد العراقي، وإبقائها سيفا مسلطاً على رقبة الدولة

في عراق الأحزاب الطائفية يمكنك أن تكون «رجل دولة»، وقائد ميليشيا

والمجتمع العراقيين. لكنّ الحرج الأكبر جرّاء الإجراء الأميركي ضدّ الفياض طال مسؤولي الدولة العراقية الذين لم يكن أمامهم سوى مواصلة الهروب إلى الأمام والاستسلام لورطة استيعاب الميليشيات الطائفية المتطرفة، وغير المنضبطة لقوانين الدولة وتسريعاتها، ضمن مؤسسات الدولة ذاتها.

فلم يكن، على سبيل المثال، أمام الرئيس برهم صالح، الذي يفترض أن يمثل بحكم منصبه رمزاً لهيئة الدولة وسيادتها التي لا تستقيم بوجود كيانات موازية لمؤسساتها الرسمية، سوى أن يعبر عن رفضه لقرار الخزانة الأميركية بمعاقبة رئيس هيئة الحشد الشعبي.



ستيفن منوتشين
محاسبة المتشددين
المختلفين مع إيران
ستتواصل

وتعبيراً عن ذلك استقبل الفياض غداة الإعلان عن العقوبات الأميركية ضده، وحرص على معاملته معاملة سائر المسؤولين الأمنيين الكبار في الدولة والتشاور معه بشأن "التطورات الأمنية الأخيرة في البلاد، مع التأكيد على رفض التدخل بشؤون البلاد الداخلية وعلى احترام سيادتها"، وفق بيان للمكتب الإعلامي لرياسة الجمهورية. ويقدر ما حمله انتخابه قوة عالمية من حجم الولايات المتحدة لقضية اختراق الميليشيات الشيعية للدولة العراقية، من خلخلة لما أصبح من الثوابت والمسلمات لدى بعض العراقيين، وما أتاحه من فرصة للشروع، ولو على سبيل المحاولة، في تغيير وضع شأن يمنع العراق من استعادة عافيته واستقراره، ويحول دون ترميم قوّاته المسلحة وتنقيتها صفوفها من العناصر الدخيلة عليها، والنأي بها عن الاعتبارات غير المهنية، فقد مثل موقف عدد من كبار المسؤولين العراقيين والقادة السياسيين، وتحديدًا أولئك الذين لا تربطهم وشائج طائفية أو حزبية بالحشد وميليشياته، إهداراً لتلك الفرصة، إمّا اتقاءً لشحن الميليشيات وبطشها المادي والمعنوي، أو تقرباً من القوى السياسية النافذة والداعمة لتلك التشكيلات الطائفية.

إدماج الحشد في المؤسسة الأمنية مثل كبة جديدة للقوات العراقية الباحثة منذ 2003 عن استعادة توازنها وترميم هيبتها المتأكدة بشدة

